اكتشافات أثرية في مدافن سقّارة

للاب الكسيس مالون اليسوعي

لسقّارة في تاريخ العاديّات المصريّة شهرةٌ مستفيضة لكثرة ما وُجد فيها من الآثار القديمة. وقد شاع اسمها منذ زمن مديد بسبب هرمها المبني على شكل الدرج في جوانبه الاربعة. وهذا الهرم يعدُّه ماريت العلامة الفرنسوي كاقدم الاهرام ويرقّي عهدهُ الى زمن دولة المصريين الاولى الى رابع ملكها واتانيس. وفي سنة ١٨٥٠ اكتشف ماريت بك المذكور في سقّارة هيكل السيرابيوم وهو قبر البقرة أبيس معبود المصريين فزاد شأن هذا المكان واضحى كنقطة بيّنة تعرّف أحوال قدماء اهل مصر وتمدُّنهم. واكتُشفت بعد ذلك عاديّات أخر منها قبر بعض الذوات من قدماء المصريين يُدعى « تي » وقبر آخر لرجل اسمهُ « ميرا » او « ميرواكا ». بيد انَّ كل هذه الاكتشافات قد مرّ عليها برهة من الدهر لا نتعرّض لوصفها ونكتفي اليوم بذكر آثار ابرزها حديثًا من خفاياها العلماء الفرنسويون المتولّون نظارة العاديّات المصريّة وقد وفّقنا الله فتمتّعنا بزيارتها بعد اكتشافها بزمن قليل فاحببنا ان نشرك قرّاء المشرق بما استفدنا من رؤية هذه النفائس المكنونة تحت ركام من الرمل منذ قرون عديدة. وسنذكر من هذه الآثار اولًا هرم أوناس وثانيًا قبر فتاح حتب ونضيف الى ذلك ذكر قبور ثلاثة وُجدت في السنة المنصرمة مع بعض الملاحظات على المدافن المصريّة القديمة

١ هرم اوناس

موقع هذا الهرم جنوبي الهرم المدرَّج السابق ذكرهُ على بُعد نحو مئة متر منهُ وكان هذا الهرم مطمورًا بالرمل فنُزع عنهُ سنة ١٨٨١ وظهر اساس الهرم امَّا القسم الاعلى منهُ فلا يزال تحت الرمل حتى اليوم. وكان هذا الهرم مصفَّحًا على جوانبهِ بصفائح الحجارة غير انَّ البُناة الذين جاؤوا في الازمنة التالية اقتلعوا هذه الحجارة لابنية اخرى. وفي باطن هذا الهرم مدفن الملك اوناس يُدخل اليهِ بباب خرج هو اليوم على سواء الحضيض فاذا عبرهُ الداخل وجد ممرًّا يهبط بهِ الى معبر ضيق مبني بالحجارة لا يتجاوز علوُّهُ وعرضهُ مترًا واحدًا وعلى جانبي المعبر كتابات هيروغليفيَّة. واذا انتهى الزائر بعد العناء الى آخر

المعبر الى مدخلاً عالياً يمكنهُ ان يستوي فيهِ منتصباً الَّا انَّ هذا المدخل قليل العرض وكان سابقاً مسدودًا بحجر ضخم لئلا يتجاوزهُ احد فينتهك حرمة القبر الملكي. وما وراء هذا المدخل معبر ثانٍ ثم ثالث ينتهي كلٌّ منهما بحجر يسدهُ سدًّا محكماً خوفاً من فتح القبر. ثمَّ يصل الزائر الى حجرة كبرى علوها ثلاثة امتار وهو يظنُّ انهُ يلقى فيها التابوتَ الملكي. لكنَّهُ يحبط ظنًّا فإنَّ هذه الحجرة الَّا امكان للتقادم والذبائح. وعلى جانبيها بابان وطيئان فباب اليمين يفضي الى سرداب خلو من كل اثر في اقصاه غرفة على جدرانها كتابات والغرفة فارغة. امَّا باب الشمال فيؤدي الى مقام الميت. ففي طرف هذه الغرفة تابوت من حجر الصوَّان وبقربهِ غطاؤهُ امَّا المومياء فقد نُقلت الى متحف العاديات كبقيَّة الاجسام المحنَّطة التي اكتُشفت سابقًا. وعلى سقف الغرفة قد نُقرت في الحجر نجومٌ رمزيَّة مخمَّسة الزوايا. وعلى جوانب الغرفة كتابات مضمونها اعمال الملك اوناس وهو آخر فراعنة الدولة الخامسة وملك نحو ثلاثين سنة

٢ قبر فتاح حتب

عاش فتاح حتب ايَّام الدولة الخامسة وكان من كهنة المصريين الاعلام. واول من اكتشف قبرهُ ماريت بك الَّا انهُ ابقاهُ مطمورًا بعد وقوفهِ على مكانهِ لما يستدعي تنظيفهُ من الشغل الطويل. وقد باشر اصحاب العاديات المصريَّة حفرهُ في السنة الماضية فقط وفتحوهُ للزوَّار ليتمكَّنوا من مشاهدة ما فيهِ من الألوان والنقوش والتصاوير العجيبة كما سترى. وهذا القبر يشبه قبرَي « تي » و « مرا » المنوَّه بهما والدخول اليهِ من جهة الشمال كقبر « تي » وبخلاف قبر « مرا » الذي مدخلهُ الى جهة الجنوب

واذا ولجتَ الباب بانت الى قاعة داخليَّة تُقسم الى ثلاث حُجر الواحدة منها عند باب المدخل نقوشها قليلة كانت كرواق مدفن الميت تُقرَّب فيها القرابين وتُقدَّم الذبائح. وموقع الحجرة الثانية على يمين الداخل. امَّا الثالثة وهي اجل الثلاث واتقنها فهي بازاء المدخل. وكلُّ جدرانها منقوشة بالتصاوير الرمزيَّة والكتابات الهيروغليفيَّة امَّا صاحب القبر فترى صورتهُ قد نُقرت ونُقشت في اقصى الغرفة وكبرهُ نحو الكبر الطبيعي وهو جالس وامامهُ صور عديدة وتماثيل كلها متجهة اليهِ سائرة نحوهُ كأنها الموكب العظيم الذي يقدم عليهِ اجلالًا لهُ. فترى اولًا الكهنة وهم يتلون الاناشيد المقدَّسة ثم سدنة الهيكل يهيِّئون لوازم الذبيحة وينضِّدون التقادم التي يتقبَّلها فتاح حتب ويتنسَّمها

بالرضى فيأخذ بيده كأسًا مملوءة مما صُبَّ له فيشربها. وما وراء هؤلاء السدنة خدّام يحارون الطير والسمك والفاكهة تقدمةً لسيدهم. وكل هذه الصور بديعة الصنع بالوان ناصعة كأنَّ العمّة انتهوا من صنعها قريبًا من عهدنا وعلى بقيّة الجدران تصاوير أُخرى تمثّل هيئات العيشة اليوميّة كالصيد والقنص والرقص والملاهي. وفي هذه الغُرف لا ترى شيئًا ينبئ باهوال الموت بل ترى الميت مجلّلًا معظّمًا كأنهُ حيٌّ يتقلب في النعيم ما بين اهلهِ وحشمهِ

وهذه الغُرف التي كان يدخل اليها الجمهور دون عائق لم تودع فيها الاجسام وانما كانت كنادٍ يتردَّد اليهِ المصريّون ليتذكروا فضائل الميت وحسن شيمهِ. ولم يكن ينفذ اليها النور الّا من الباب وكانت مبنيّة فوق الحضيض وتُجعل على هيئة صفّة ولذلك يدعوها اهل مصر في زماننا مصطبة وهي احد الاقسام الثلاثة من القبر المصري

والقسم الثاني من هذه المدافن هو الذي يدعوهُ المصريّون سردابًا وهو عبارة عن مخبأة مستطيلة تُحفر

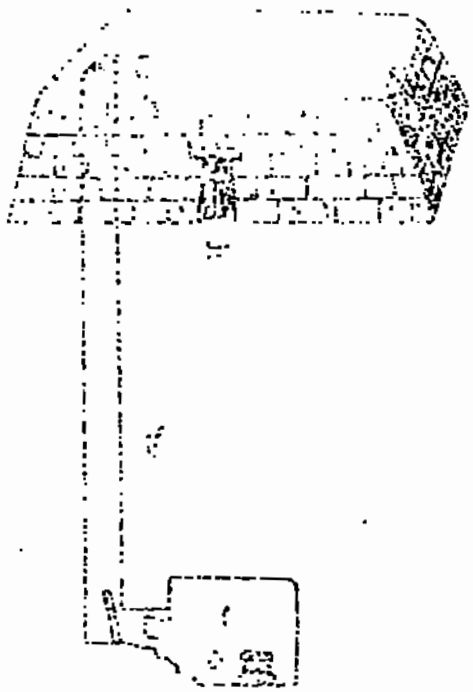

المصطبة والبئر والمدفن السري في المدفن المصري
ب مدخل الغرفة العليا. ج فوهة البئر على سطح المصطبة. ج منحدر البئر. ج سرب ضيق مسدود بحجر يُدخل منهُ الى مدفن الميت. م المدفن السري. ن ناووس الميت

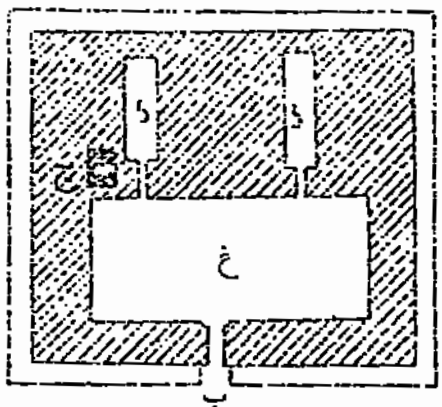

قطع المصطبة في وسط علوها لرؤية الغرفة العليا والسراديب
ب باب الغرفة العليا. غ الغرفة العليا. س سردابان. ج قطع البئر الذي ينحدر منهُ

في وسط الجدار وغالبًا في الجهة الجنوبيّة منهُ وتسدّ بحيث لا يراها الناظر ولا يطّلع عليها وكانوا يجعلون في هذا السرداب تماثيل الميت وصوره يزعمون ان نفسهُ تستند اليها وتجاورها بل تحيا بها

اما القسم الثالث من المدافن المصريّة فهو المكان المختصّ بالجثّة وكان القدماء يتأنقون في صنعهِ ويستفرغون مبلغ علمهم في ايجاد طريقة ينجو بها الميت من كيد الاعداء واللصوص. فاصطنعوا لذلك آبارًا بعيدة القور يبلغ عمق بعضها نيفًا وعشرين مترًا كانوا يجعلون فوهتها في سطح المصطبة لئلا يقف عليها احد. وكانت هذه الآبار مربّعة الشكل او مستطيلة تنفذ في وسط الحائط الى ان تبلغ الصخر الذي بُنيت عليهِ المصطبة. وفي قعر هذه الآبار سرب مظلم منقور في الصخر ضيّق يجري فيهِ الداخل منحنيًا لحرج جوانبهِ فاذا مشى قليلًا بلغ حجرة متسعة وفي هذه الحجرة كان يُجعل تابوت الميت وفيهِ جثّتهُ المحنّطة باحكام عجيب. وهذه الاحتياطات المتعدّدة قد التجأ اليها المصريون ليصونوا اجساد موتاهم من كل يد اثيمة. وترى في مصطبة فتاح حتب هذه الاقسام الثلثة كما تراها في المصاطب التي كان العلماء اكتشفوها سابقًا ولم يطلعوا على اسرارها المكنونة الّا بعد الجهد الجهيد

٣ مدافن اخرى

في هاتين السنتين الاخيرتين قد وجد علماء العاديات المصريّة انّ سقّارة لا تزال غنيّة بالآثار القديمة غير الظاهرة للعيان. وممن تولّى الحفر فيها هذه المدّة الاخيرة المسيو برسانتي (Barsanti) تحت نظارة العلامة ماسپرو. فاحتفر الارض حول هرم اوناس السابق ذكره فوجد آثارًا مختلفة الّا ان اكثرها كانت محطّمة وكذلك اكتشف آبارًا عديدة لجثث الموتى كان اللصوص سالفًا تمكّنوا من فتحها وترعوا المومياء منها. الّا جثة احد سدنة الهرم يُدعى سَنوفير وُجد جسمهُ محنّطًا في تابوت من خشب والتابوت في قفّة كبرى وهي سفيفة من الأسل ليس في المتحف المصري مثالٌ من شكلها. وكذلك وُجد تاروبس اميرة تُدعى سَتيادبوني وبقربهِ اربعة آنية من الرخام الابيض الشفّاف المسماة كانوپ كانت تجعل فيها احشاء الميت قبل تحنيطهِ اما مومياء الاميرة فكان استولى عليهِ الفساد وكانت اصابع اليدين والرجلين مغشّاة بغُلف من الذهب

بيد انّ الاكتشافات الخطيرة من هذا القبيل انّما جرت في جنوبي الهرم وهي ثلاثة

مدافن ذهبت مصاطبها بتوالي آفات الزمان ولم يبقَ منها سوى آبارها وأسرابها . وهي كلها ترتقي الى ايام الدولة السادسة والعشرين اي القرن السادس قبل المسيح . ولكل هذه المدافن بئران بئر كبير وبئر آخر اصغر ينحدر اليه من البئر الكبير وفي هذا البئر الصغير كانت تُجعل جثّة الميت . وكلا البئرين في اعماق الارض على مسافة نيف و ٢٨ متراً من الحضيض وهما منقوران في الصخر . والمدافن الثلاثة قريبة من بعضها وقد اكتشفها الحفّارون بعد الجهد الجهيد لعمقها البليغ ولكثرة ما تراكم عليها من الرمل

وليست هذه المدافن لملوك مصر بل لبعض اعيانها ولم تنتهك حرمتها اللصوص في الاعصار الغابرة . احدها لرجل من عظام الدولة في عهد الملك احماسيس يُدعى پسماتيك . وكان تابوتهُ من الحجر الكلسي المصمت مُتقن الصنع عظيم الجرم جُعل على سبع دعائم وهو مفتوح وغطاؤهُ بقربهِ الّا ان جثة الميت لم تُجعل فيهِ والظاهر ان پسماتيك مات في الحرب لمّا فتح قمبيز بلاد مصر فلم يتيسّر لذويه ان يحنّطوهُ

والمدفن الثاني قريب من مدفن پسماتيك وهو لابنهِ پاتانيسيس احد قدماء الملك احماسيس . وقد وُجد تابوتهُ مع المومياء غير انّ تحنيطهُ لم يكن متقنًا ففسدت الجثة امّا اثاث هذه الغرفة فكانت بسيطة ليست من شان ارباب الدولة . ولكن الغرفة بديعة الصنع فيها من النقوش بالألوان والتصاوير والكتابات ما يدلُّ على ترقٍّ عظيم في صناعة التصوير . امّا الكتابات فاكثرها صلوات منقولة عن كتب قديمة العهد كانت تتلى على الموتى . وهي كثيرة الاغلاط يُستدلُّ من نصها المشوَّه انّ اهل ذلك العصر لم يفهموا معناها

اما المدفن الثالث فوُجد بعد ذلك بقليل وكان محكم السدّ لم يبلغ اليهِ الحفّارون الّا بعد شقّ النفس وكان غنيًّا بالآثار فلمّا دخلهُ المسيو برسانتي عثرت رجلهُ بصوّان من خشب جميّز ذي رفّين كلهُ مملوء بالآنية الفاخرة والرموز الدينيّة والتمائم المختلفة بعضها بالحجارة ومنها بالخشب او الذهب او الفضة . وكان على جانبي المدفن كرّى لآنية الكانوپ المتضمّنة احشاء الميت وحول التابوس تماثيل عديدة من معجون ازرق غاية في الاتقان تمثل صاحب القبر واسمهُ زَنيهيو وهو ربّان السفن الملكيّة . وفي جدران القبر نقوش جميلة كنقوش قبر پسماتيك . امّا التابوس فكان عليهِ غلافهُ وهو محكم القفل بحيث كان الغلاف والتابوس كقطعة واحدة لم يمكن فصلهما الّا بعد شغل ثمانية ايام متتالية . والتابوس من الحجر البركاني المعروف بالبازلت امّا الغلاف فمن الحجر

الكلسي . وكان جرن التابوس مملوءاً من القير اللامع الشديد التلاصق وهو يحجب الميت بالتمام . فقُرض القير بالمقراض الى ان ظهرت المومياء وعليها صفائح من الذهب . وكان الميت مزيّناً بانواع الحلي والحجارة الكريمة منها مئون من اللآلي الثمينة ومنها القلائد المركّبة من قطع الذهب وفصوص الفلدسپاث الاخضر . وكان في جانبي الميت رموزٌ لا تحصى غريبة الشكل عجيبة الصنع منها تماثيل حيوانات او اصنام يعبدها المصريون كصور ايزيس ونفتيس وكالبزاة والبواشق ورؤوس الكبوش والحيّات وصور رمزيّة تمثل النفوس وحياتها في العالم الآخر ومنها صورة نخلةٍ مع سعفها وتمرها ومنها صورة سفينة سوكار إله الموت عندهم . وكلُّ هذه الدُّمى من الذهب الخالص والشغل البديع نُقلت الى متحف العاديّات وهي اليوم تُعدّ من اجل آثار العصر الذي سبق الفتح الفارسي في مصر وبقايا الدولة السادسة والعشرين

وقد عاد المكتشف مؤخرًا الى هذه المدافن ليواصل الشغل في جهاتها فوجد آثارًا اخرى نخصُّ منها بالذكر كتابةً قبطيّة وُجدت في احد السراديب المجاورة لهذه المدافن وهي حجارة ضريح لاحد النصارى القدماء تبتدئ بالبسملة « بسم الاب والابن والروح القدس » فاستدلَّ الباحثون من هذه الكتابة انَّ الاقباط بعد تنصّرهم داوموا على دفن موتاهم في قبور اجدادهم الوثنيين

هذه خلاصة ما وُجد في سقّارة من المآثر على انَّ هذا المكان يحتوي بعد كنوزًا أُخرى دفينة سيبحث عنها اهل العلوم . والمدافن الثلاثة قد طُمرت الآن بالرمل ثانية لم يُفتح منها للزوّار سوى واحدٍ منها جُعل لهُ درج لولبي يُنزل منهُ الى قعر البئر السفلى

ولا يسعنا ان نختم هذه العجالة دون ان نستلفت نظر القرّاء الى إكرام المصريين لموتاهم . فتُرى ماذا حملهم الى هذه الاشغال العجيبة ليصونوا اجسام اهل القبور . أفحداهم الى هذا تعظيمهم للموتى فقط ؟ لا لعمري بل لا بُدَّ من القول انهم لم يقدموا على هذه الاعمال الّا لاعتقادهم بحياة أُخرى وخلود النفوس . وكانوا يدعون مدافنهم « ديار الابدية » قال المؤرخ ديودور : « انَّ المصريين يعدّون منازلهم التي يعيشون فيها فنادق لقصر الزمان الذي يصرفهُ فيها الانسان على الارض . امَّا القبور فيدعونها معاهد الخلود . وفي الواقع نرى مدنهم القديمة قد بادت وفنيت امَّا مقابرهم فلا تزال صابرة على آفات الزمان »

وتزيد على ذلك انَّ المصريين ليس فقط بتعظيمهم لموتاهم كانوا يقرُّون بوجود

حياة آجلة بل كانوا يعتقدون ايضاً بالبعث والنشور يستفاد ذلك من تحنيطهم لموتاهم اذ لا يصدّق عاقلٌ انهم تكلّفوا كل هذه المشقّات ليحفظوا فقط هيكل الميت وصورتهُ لولا علمهم بان النفوس ستُحيي يوماً هذه الاجسام وتنعشها ثانيةً . ولنا على ذلك دليل حسيّ في صورة النفس التي كانوا يمثّلونهـا على هيئة الطير فينقشونها على صدر الميت كانهم يشيرون بذلك الى يوم الدين حيث تعود هذه النفس الى مسكنها السابق وتحتالُهُ الى دهر الدهور . والله اعلم

تراجم الشهداء الاربعين

لفطرك المشرق الياً الثالث ابن الحديثي المعروف بابي حليم

نشرهُ الاب لويس شيخو اليسوعي

في اليوم التاسع من هذا الشهر تعيّد جميع كنائس الشرق عيد الشهداء الاربعين الذين قُتلوا في سبيل الايمان على عهد الملك ليقينوس الذي كان استبدّ بالامر في بلاد الشرق لمّا انتصر قسطنطين الملك على مكسنطيس في الغرب . وكان ليقينوس وثنياً مضطهداً للنصرانيّة فمن جملة من قُتل باغرائهِ هؤلاء الاربعون شهيداً كانوا منتظمين في سلك الجنديّة الرومانيّة تحت امرة اغريقولاوس قائدهم فأبوا السجود للاصنام . ولذلك جُرّدوا من ثيابهم في ليلة شديدة البرد وجُعلوا فوق بحيرة جامدة عارياً في سبسطية (سيواس) من اعمال أرمينية فنالوا بهذا العذاب اكليل الاستشهاد . وللاباء الشرقيين في مديح هؤلاء الشهداء خطبٌ بليغة يعرفها العلماء

اما مؤلف هـذا التراجم العربي فهو ابن الحديثي احد بطاركة الشرق النساطرة المشهور بابي الحليم (١ والمتوفى سنة ١١٩٠ م وعنهُ اوردنا سابقاً عدّة تراجيم غير مطبوعة في مجموع خطبهِ المنشور في الموصل (راجع المشرق ٣ : ٦١٨ و ٩٦٩) والسريان يدعون الخطب الكنسيّة « تراجماً » من السريانية ܬܓܘܡܐ وهي الخطبة الاتذارية

الحمد لله الذي اشرق سواطع نورهِ على سرائر اوليـائهِ . وأطلع بوارق حِكَمهِ في آفاق عقول اصفيائهِ . وجلا عن بصائرهم ظلام اشتبـاه الطاغوت وعمائهِ . ونوّر اذهانهم

١) وقد رهم حضرة الاب قسطنطين باشا في مقدّمة كتاب دفع الهمّ الذي عُني بطبعهِ حديثاً اذ دعا صاحب هذا التأليف ايلياً القسطوري بابي الحليم فاشتبه عليهِ ايليا اسقف نصيبين وايليا الثالث ابو الحليم وبينهما نحو ١٥٠ سنة . ونبّه ايضاً حضرتهُ ان ينبّه القراء بان كثيرين ينسبون كتاب دفع الهم لابن البحري الكاتب اليعقوبيّ الشهير (راجع المشرق ١ : ٥٠٦)